



العودة إلى نهج البلاغة

آية الله السيد علي الخامنئي



مقدمة

بين يديك أخي القارئ كتاب صغير في الحجم كبير في المحتوى، هو عبارة عن ثلاث محاضرات قيّمة، ألقاها سماحة الإمام الخامني (دام ظله) في مناسبات عدة، اجتمعت حول نهج البلاغة، هذا الكتاب الذي عُرف كأعظم كتاب بعد القرآن الكريم في التراث الإسلامي الأصيل.

لقد قام مركز بقية الله الأعظم للدراسات بتعريب المحاضرات الفارسية، دون أي تصرف، مع المحافظة التامة على الصياغة الإلقائية في المحاضرة الشفهية، وذلك ضمن سلسلة مؤلفات سماحة الإمام الخامني التي أشرف المركز على إنهاء ترجمتها كاملة.

يقف المتابع لفكر هذا القائد الحكيم عند ظاهرة، ربما ليس لها مثيل بعد الإمام الخميني "قدس سره الشريف". هذه الظاهرة التي تحتاج إلى مدة زمنية علمها عند الله لتكتشف على حقيقتها، وهي ما يتعلق بالفكر الاجتماعي للإمام الخامني (دام ظله). وفي محاولة الاقتراب من هذه الظاهرة العظيمة التي من شأنها أن تكون فتحاً كبيراً في الفكر الإسلامي، نجد أن مسألة المجتمع وقضاياها المصيرية كانت شبه غائبة عن مسرح الأبحاث العلمية لعلمانا الكبار. وإذا وجد من يتناولها انطلاقاً من موقعه الدينية، ففي أغلب الأحيان يكون العرض بشكل كلي دون الدخول في عمق التعاليم الإسلامي والنصوص الشريفة واستنباط أبعاد وقوانين الفكر الاجتماعي منها. هنا نشاهد فكراً جديداً يترعرع في رحاب روح جيّاشة ثابتة في أرض الأصالة متفرعة إلى سماء شؤون الحياة بأبعادها المصيرية، لبيثاً في أجواء العالم الإسلامي، الغارق في وحول القرون الماضية للغة التامة عن التعاليم الاجتماعية للإسلام، روحاً جديدة ستثمر في المستقبل نهضة كبرى بإذن الله.

لعل هذه الإشارة نفسها لن تكون واضحة ما لم نبيّن أصول هذا الفكر الاجتماعي ولو بشكل موجز يتناسب مع هذه المقدمة. فالأصل الأول في هذا المجال هو مركزية الحكومة والمسؤولية الاجتماعية - الشرعية تجاه الحكم. ويتفرع من هذا الأصل تحليل أحداث التاريخ على هذا الأساس ورؤية جميع الأنشطة والتحركات ضمن حركة الحكم، التي هي رؤية واقعية نافذة لا تغف عند ظواهر الأحداث. وينبع من هذه الرؤية أيضاً اعتبار تشكّل الثقافة الواقعية للشعب من خلال نظام الحكم.

إن كل واحدة من هذه القضايا تحتاج إلى بحث مفصل وعميق. وما يظهر من كلمات سماحة الإمام الخامني (دام ظله) أنه يرسم الرؤية الشاملة لهذا الأصل، بحيث يمكن القول ان الحكومة تمثل محور فكره كله. ولقد قال الإمام الخميني في كتاب البيع - مبحث ولاية الفقيه: "إن الإسلام هو الحكومة". مختصراً هذا الدين برويته الكونية ونظامه السلوكي بهذه القضية الرئيسية.

ومن مظاهر هذه المحورية، تبيان وشرح التعاليم الأخلاقية والوظائف الشرعية الفردية وفق هذه الرؤية الاجتماعية بحيث يصل المنتبّع لفكر سماحته إلى الاعتقاد بما قاله إمامنا الراحل سابقاً "إن الأخلاق كلها سياسة"، أو قوله "قدس سره الشريف": "إن الفلسفة العلمية لكلّ الفقه بكل أبعادها هي الحكومة".

الأصل الثاني في هذا الفكر الاستنهاضي هو الشعب. فإننا إذا طالعنا جميع ما كُتب من قبل عملاء الإسلام منذ القرن الأول وإلى يومنا هذا من مؤلفات في شتى الميادين لا نستطيع أن نعثر على هذا الأصل. حتى ان هذا البعد الاجتماعي لم يتشكل

يوماً كما أراد الله تعالى من خلال مفهوم الأمة الواحدة في القرآن الكريم، لأنه سرعان ما حكمت العقلية العشائرية والقبلية بعد وفاة رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" ووصلت إلى ذروتها على عهد معاوية حيث جعل الحكم ملكاً عضواً. ولم تتفع المساعي الكبرى لأنمة المسلمين الصالحين للقضاء على هذا الانحطاط الكبير الذي أصاب المجتمع الإسلامي بأسره.

هنا نجد الإمام الخامنئي - وبرؤيته الاستراتيجية للأمور - يفص في أحداث التاريخ ويدرس المجتمع الإسلامي من زاوية الناس أو الشعب؛ فهو يسعى للبحث عن هذا البعد الذي ضاع في كتابات العلماء وبعد أن يجده يعطينا على أساسه تفسيراً عميقاً للتاريخ، يصلح بكل جوانبه أن يكون درساً استراتيجياً للحاضر والمستقبل.

وكما أشرت في طيات الكلام، من الصعب الآن أن ندرك هذا الامتياز الذي حققه سماحته مما يجعله من الفاتحين الكبار في مجال الفكر الإسلامي.

ما نحتاجه أولاً هو المطالعة الشاملة لفكره ومقارنته بفكر عظماء العلماء، بالإضافة إلى امتلاك الحس السياسي والهم الاجتماعي الذي يعني البحث الدائم عن اكتشاف أمراض المجتمع الإسلامي وأسباب انحطاطه ووسائل وبرامج علاجها.

أمل أن يهتدي القراء الأعزاء إلى هذا الكنز العظيم.

قم المقدسة - 14 شوال 1420 هـ

الحكومة في نهج البلاغة

محاضرة أقيمت في مؤتمر ألفية نهج البلاغة

طهران - مدرسة الشهيد مطهري - رجب 1401 هـ

إن قضية الحكومة في نهج البلاغة قد طرحت - كعشرات القضايا المهمة في الحياة - في هذا الكتاب العظيم بأسلوب مغاير لأساليب المحققين والمؤلفين. فلم يفرد أمير المؤمنين "عليه السلام" فصلاً مستقلاً حول الحكومة يرتب فيه المقدمات للوصول إلى النتائج. فإن أسلوبه في تناول هذا الباب المهم، كغيره من الأبواب الأخرى كان أسلوب الحكمة، أي عبور المقدمات والتأمل والتركيز على النتيجة. فإن نظر أمير المؤمنين "عليه السلام" إلى قضية الحكومة هو نظر حكيم عظيم له ارتباط قريب بمنبع الوحي.

كذلك فإن هذه القضية في نهج البلاغة لم تطرح بصورة بحث مجرد (تجريدي). فإن الإمام علي "عليه السلام" كان على تماس مباشر بأمر الحكومة، وكان يتحدث كحاكم يمارس إدارة الدولة الإسلامية مع كل ما فيها من مشاكل ومصائب وآلام، ويتابع جوانبها المتعددة. وإن التفاتنا إلى هذا الأمر، ونحن نعيش في ظروف وأوضاع مشابهة لظروف أمير المؤمنين "عليه السلام" ملهم ومفيد جداً، وسوف أتعرض هنا، من خلال جولة قصيرة في نهج البلاغة، إلى قضايا قد دونتها وهي تمثل رؤوس المطالب.

والقضية الأساسية التي ينبغي الالتفات إليها في هذا المجال:

1- معنى الحكومة

في البداية ينبغي أن نرى هل ان "الحكومة" عند الإمام "عليه السلام" هي بالمعنى المتداول في ثقافة العالم القديم والعالم المعاصر؟ أي تلك الحكومة التي تعني التسلط والتحكم، وأحياناً تعامل الحاكم مع المحكومين من واقع التمايز في الحياة؟ أم لا، ان "الحكومة"، في ثقافة نهج البلاغة لها مفهوم آخر؟ في هذا المجال نستخلص من نهج البلاغة عدة مصطلحات تشير إلى الحاكم بعنوان "الإمام" و"الوالي" و"ولي الأمر" وتشير إلى الشعب بعنوان "الرعية"

2- ضرورة الحكومة

المطلب التالي، هو قضية ضرورة الحكومة. فمن الأبحاث التي تدور في هذا المجال هو هل يعد وجود القيادة والحكومة أمراً ضرورياً للمجتمع الإنساني أم لا؟ والاستنتاج الذي نخرج به من هذا البحث هو الالتزام بلوازم في الحياة الاجتماعية، ولا ينحصر الأمر بمجرد قبول ضرورة الحكومة للمجتمع بل نتيجة بحثنا سترسم الخطوط الخاصة لنهج القيادة والحكومة وإدارة المجتمع.

3- منشأ الحكومة

ما هو منشأ الحكومة في نهج البلاغة؟

هل هو الأمر الطبيعي، العرق، العشيرة، النسب، القوة والافتقار (سواء الطبيعي أم المكتسب)؟ أم لا، وإن منشأ الحكومة، وما يعطي الشرعية لحكم الفرد أو الجماعة هو أمر إلهي أم أمر شعبي؟

4- الحكومة حق أم تكليف؟

المسألة الرابعة هي هل ان الحكم هو حق أم تكليف؟ وهل ان الحاكم يمتلك حق الحكومة أم هو مكلف بالحكم؟ ومن هو الذي يمكنه أو ينبغي له أن يحكم؟ في نهج البلاغة، تعد الحكومة حق وتكليف أيضاً. وبالنسبة للذي يتمتع بشروط ومعايير ومواصفات الحاكم، يجب عليه أن يقبل الحكومة في بعض الشرائط والظروف، ولا ينبغي له أن يلقي هذا الحمل عن عاتقه.

5- الحكومة هدف أم وسيلة؟

المسألة الخامسة، هل أن الحكم يعد - للفرد أو للجماعة الحاكمة - هدفاً أم وسيلة؟ وإذا كان وسيلة، فلأي هدف؟ وما هو الهدف الذي يريد الحاكم الوصول إليه من خلال الحكومة وإيصال المجتمع إليه أيضاً؟

6- الحاكم والرعية

المسألة السادسة، هي ما يتعلق بقضية حساسة حول علاقة الحاكمة بالرعية، وما هي المباني والأسس التي تقوم عليها هذه العلاقة؟ فهل هي حق من طرف واحد يمتطي الحاكم من خلاله رقاب الناس؟ أم أنه حق متقابل؟ إن من أكثر الأبحاث المتعلقة بالحكومة في نهج البلاغة من حيث التأسيس والمعنى والنتيجة هي هذه القضية.

7- الشعب والحكومة

المسألة السابعة، ما يرتبط بدور الشعب في الحكومة. ويجب أن ننظر إلى ثقافة نهج البلاغة ونرى دور الشعب في الحكومة. هل هو مصيري؟ أم ابتدائي؟ كامل الصلاحيات؟ أم مجرد من الدور؟ فأى شيء هو؟ فمثل هذه الأمور تعد من أكثر المسائل دقة في نهج البلاغة. وإن الثقافات الحاكمة في عصرنا الحالي على أذهان الناس في الأجنحة والتيارات السياسية المختلفة، لا ينطبق أي واحد منها على ثقافة نهج البلاغة.

8- كيفية التعامل مع الناس

المسألة الثامنة والتي تعد من الناحية الأصولية مسألة ثانوية، ولكن من الناحية العملية مسألة مهمة جداً وحساسة، هي كيفية تعامل الجهاز الإداري مع الشعب. فكيف ينبغي أن يتعامل أعضاء الحكومة مع الناس؟ فهل هم مدينون لهم أم العكس؟ وكيف ينبغي أن تكون أخلاق الجهاز الحاكم في تعامله مع الشعب؟

9- سلوك الحاكم مع نفسه

المسألة التاسعة والتي هي أيضاً من المسائل الملفتة جداً هي ما يتعلق بسلوك الحاكم مع نفسه. فهل يوجد حدود معينة لسلوك الحاكم في المجتمع؟ وهل يمكن الرضى والاكتفاء بحسن سلوكه مع الشعب؟ أم لا، فإن هناك ما يفوق هذا الارتباط والعلاقة، وهو علاقة الحاكم بنفسه؟ فكيف ينبغي أن تكون حياته الشخصية، وما هو المطروح في نهج البلاغة حول هذا الأمر؟

10- شروط الحاكم ومواصفاته

المسألة العاشرة هي صفات الحاكم. فكيف يمكن للإنسان أن يحكم المجتمع البشري بناءً على أحكام نهج البلاغة؟ فهذه عناوين القضايا التي وردت في نهج البلاغة، ونحن نستطيع أن نتعرض لها بالبحث.

مفهوم الحكومة

المسألة الأولى تدور حول مفهوم الحكومة.

في التعبيرات المستعملة في اللغة العربية للحاكم يوجد هذه العبارات والعناوين: السلطان والملك. وتتضمن كلمة السلطان في باطنها مفهوم السلطة في الحاكم. أي أن ذلك المسمى بالحاكم ينظر إليه هنا من بُعد السلطة، حيث لا يحق للآخرين التدخل في شؤون الناس وأمورهم، بينما يحق له ذلك.

أما الملك، والملوكية والملكية فإنها تتضمن مفهوم تملك الناس أو امتلاك مصيرهم. وفي نهج البلاغة لا نجد هذين التعبيرين (الملك أو السلطان) قد استخدموا في مجال الإشارة إلى الحاكم على المجتمع الإسلامي. بل التعبيرات الواردة في نهج البلاغة هي الإمام الذي هو القائد. ومفهوم القائد يختلف عن مفهوم المرشد. فالقائد هو ذلك الإنسان الذي يتقدم الجماعة أو الأمة التي يقودها. كما أننا نجد في كلمة الإمام مفهوم الحركة والتبعية والتقدم في تحريك الناس وفق مسار ما.

التعبير الآخر هو الوالي. وقد أخذ هذا التعبير من كلمة الولاية أو الولائية. وبالالتفات إلى مشتقات هذه الكلمة يمكن الوصول إلى البعد المنظور فيها. والولاية في أصل معناها اللغوي تدل على ارتباط شينين. فاللغة تقول إن الولاية تعني اتصال شينين معاً، بحيث لا يبقى أي شيء فاصلاً بينهما. وبالطبع فهناك معاني أخرى للولاية، كالمحبة والإشراف والقومية. والولاية بمعنى تحرير العبد، أو بمعنى العبودية أو السيادة على العبد.

يبدو أن طبيعة العلاقات التي ذكرت في معنى الولاية كلها مصاديق ذلك الارتباط والاتصال. فوالي الأمة أو الرعية هو الذي يتحمل أمور الناس وهو مرتبط بهم. ونفس هذا المعنى يوضح بعداً خاصاً من مفهوم الحكومة في نهج البلاغة وعند أمير المؤمنين "عليه السلام": فولي الأمر هو المتصدي لهذا العمل. ولا يوجد أي امتياز يختفي في كلمة المتصدي لهذا العمل. فالمجتمع الإسلامي يشبه مصنعاً ضخماً يتألف من أقسام، وآلات ومفاصل وأجزاء صغيرة وكبيرة تتفاوت في تأثيرها. وأحد هذه الأقسام هو الذي يشغله مدير المجتمع، مثل بقية الأقسام، فهو مثل بقية الأجزاء والعناصر المشكّلة لهذه المجموعة.

ولي الأمر هو المتصدي لهذا العمل، والمتصدي لا يطلب ولا ينتظر الحصول على أي امتياز ومن الناحية العملية ليس له أي امتياز من ناحية وضعه المعيشي أو شؤوناته المادية. فإذا كان يقدر على أداء تكليفه بشكل صحيح، فإنه بمقدار ما يؤدي هذا التكليف ينال الشأنية المعنوية، ولا غير. فهذا حاق وجوه مفهوم الحكومة في نهج البلاغة.

وهكذا، فالحكومة في نهج البلاغة ليس فيها أية إشارة أو علامة على السلطة. وليس فيها أي مبرر لنيل الامتياز. ومن هنا، يكون الناس بحسب تعبير نهج البلاغة رعية، والرعية هم الجماعة التي تقع مسؤولية رعايتها والسهر عليها وحراستها على عاتق ولي الأمر. ولا شك أن مفهوم الرعاية والمحافظة يتفاوت من الجماد إلى الحيوان.

وأحياناً تكون الحراسة والمحافظة على الناس، فهنا نأخذ الإنسان بجميع أبعاد شخصيته ووجوده وحرية وسعيه الدائم للكمال والسمو ورقية المعنوي، وأهدافه العليا، ويجب رعاية هذه الأبعاد والشؤون مجتمعة.

فهذا الأمر هو الذي أشير إليه في الثقافة الإسلامية عبر العصور. يقول كميث الأسدي:

"ساسة لا كمن يرى الناس سواء ورعيه الأنعام".

السياسيون هم الذين لا يرون رعية الناس مثل رعية الحيوانات بيد أن الإنسان يجب مراعاة إنسانيته، وهذا هو مفهوم الرعية التي تعبر عن الشعوب في نهج البلاغة.

وباختصار، عندما نكون بصدد البحث عن مفهوم الحكومة في نهج البلاغة، نشاهد من جانب أن رأس الحكومة هو الوالي أو ولي الأمر يتصدى لأعمال الناس وهو موظف ومكلف بتكليف مهم، يتحمل على أساسه مسؤولية ثقيلة وكبيرة. ومن جانب آخر، نرى الشعب بكل قيمه وأهدافه والعناصر المشكّلة لهويته يقع مورد الرعاية. فهذا هو مفهوم الحكومة، وهو لا يدل على تسلط أو قهر أو سعي إلى المزيد من الامتيازات.

ويشير أمير المؤمنين "عليه السلام" في مواضع مهمة من نهج البلاغة إلى أبعاد الحكومة. ولعلنا نجد عشرات الجمل في هذا الكتاب مما يدل على مفهوم الحكومة عند الإمام علي (عليه السلام)، منها ما ورد في بداية عهده لمالك الأشتر حيث يقول:

"جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها" فهذا معنى الحكومة. وإذا عَيَّن مالك الأشتر كوالٍ وحاكم على مصر، فليس لأجل أن يحصل على سلطة وموقعية لنفسه، أو نيل امتيازات ومنافع مادية، بل لأجل أداء هذه الأعمال: إدارة الأمور المالية للبلاد، ومحاربة أعداء الشعب والحفاظ عليه منهم، وإصلاح الناس (وهذا الصلاح بأبعاده المادية والمعنوية الواسعة قد طرح في نهج البلاغة)، وعمارة المدن مما هو واقع ضمن نطاق حكومته. وباختصار: القيام ببناء الناس والبلاد ورفع مستواهم المعنوي وقيمهم الأخلاقية.

ضرورة الحكومة

المسألة الأخرى هي مسألة ضرورة الحكومة. وهذا البحث كان يطرح في نهج البلاغة مقابل تيار خاص، واستمر كذلك. أي مقابل التيارات السلطوية. ففي كل مجتمع، يوجد أفراد يريدون تحصيل الشأنية والقدرة الفردية، ويرون الوضع الجاري في المجتمع غير مناسب لهم، فيتحركون لأجل التحرر من الضرورات التي تفرضها الحياة الاجتماعية على الناس، والعقود الاجتماعية السائدة. ولقد وجدت مثل هذه الدوافع في المجتمعات السابقة، ولا زالت، وستبقى ما دامت الأخلاق الإنسانية غير كاملة وصحيحة. مثل هؤلاء كمثل الذين ركبوا سفينة مع غيرهم وأرادوا أن يخرقوا المكان الذي جلسوا فيه. أو ركبوا قطاراً، وأرادوا أن يوقفوا عربتهم التي تقلهم في مكان يحلو لهم، حتى لو أوقفوا كل القطار. إن هؤلاء لا يلتزمون بالضرورات التي تفرضها الحياة الاجتماعية - الموافقة للطبيعة الاجتماعية الإنسانية - على الإنسان.

ولو وجدت هذه الدوافع التسلطية في المجتمع مجالاً لها للبروز، فإن الأمر سينتهي إلى الهرج والمرج. ومن هنا كان الإمام علي "عليه السلام" يقول رداً على هذه التيارات: "لابد للناس من أمير". ولقد نطق الإمام علي "عليه السلام" بهذا الكلام في الرد على تيار خاص ينفي ضرورة الحكومة. وهو في باطنه يريد الهيمنة والتسلط، لكنه يتظاهر بمقولة فلسفية. وهؤلاء هم الخوارج الذين كانوا يقولون: "لا حكم إلا لله". وكان قسم منهم يقول ذلك عن اعتقاد خاطئ وقسم آخر كان مغرضاً، وهم يريدون أن ينفوا لزوم وجود الحكومة في المجتمع.

وهنا وقف أمير المؤمنين "عليه السلام" موضعاً معنى "لا حكم إلا لله"، ومبيناً خطأهم. ونحن لا نصدق أبداً أن الأشعث بن قيس الذي كان زعيم الخوارج قد وقع في الخطأ والشبهة، وكذلك لا نصدق بأن الأبيادي التابعة للسياسيين المتربصين بالإمام

علي "عليه السلام" لم تكن وراء مثل هذا التيار المتظاهر بالتوحيد وحماية الألوهية. فقد كانوا يقولون إن الحكومة مختصة بالله، ونحن لا نريد الحكومة. أما قصدهم الواقعي فقد كان رفض حكومة الإمام علي "عليه السلام". ولو سلم الإمام علي "عليه السلام" في ذلك الوقت لهذه المغالطة الواضحة، أو تنازل لصالح هذه الاضطرابات الاجتماعية، أو للناس الذين كانوا ينطقون بهذه الأقوال الباطلة بسداجة واعتزل الميدان فإن نفس أولئك الذين كانوا يتفوهون بهذه الشعارات كانوا ليصبحوا أذعياء وطلاب الحكومة.

فيقول أمير المؤمنين "عليه السلام": "كلا، فإن الحكومة لازمة للمجتمع": "كلمة حق يراد بها الباطل". فهذا الكلام حق، وهو بيان القرآن: {إن الحكم إلا لله}، ولكن ليس بمعنى أن المجتمع لا يحتاج إلى مدير: "نعم أنه لا حكم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله"، مما يعني أن يبقى المجتمع بدون مدير: "وإنه لا بد للناس من أمير ير وفاجر". فإن هذه ضرورة اجتماعية، وضرورة طبيعية وإنسانية تفرض لزوم المدير للمجتمع، سواء كان مديراً سيئاً أم جيداً. فإن ضرورة حياة البشر تفرض وجود مدير. أما قولهم "لا حكم إلا لله" فأرادوا به إسقاط حكومة الإمام علي "عليه السلام"، وهو في الحقيقة يعني نفي الأنداد لله، نفي أية حاكمية مقابل حاكمية الله. أما حاكمية الإمام علي "عليه السلام" فلم تكن في عرض حاكمية الله. بل كانت ذنبة في حكم الله وفي طوله، ونابعة منه. وكان أمير المؤمنين "عليه السلام" يوضح هذه القضية.

فإذا وجدت مثل هذه الحكومة - التي منشؤها الحاكمية الإلهية. في المجتمع، فإن أي حركة دالة على هذا المفهوم الانحرافي "لا حكم..."، هي حركة معادية لله ولهذا واجد أمير المؤمنين "عليه السلام" في ذلك الوقت تيار الخوارج بقوة وقضى عليهم بشدة.

- منشأ الحكومة

المسألة الثالثة تتعلق بمنشأ الحكومة. ففي الثقافة الإنسانية الراجحة في الماضي والحاضر، كان منشأ الحكومة هو القوة والسلطة. وكانت جميع الفتوحات العسكرية لهذا الغرض. وجميع الأسر الحاكمة، التي حلت مكان أسر حاكمة أخرى، جاءت إلى الحكم بهذه الطريقة. فالاسكندر الذي فتح إيران، والمغول الذين اجتاحتوا هذه المناطق، لم يكونوا سوى تعبير عن هذه الحالة.

فالمنطق السائد كان أننا طالماً نقدر على التقدم والسيطرة فلنتقدم ولنقتل. وفي مسيرة التاريخ كانت التحركات التي تصنع تاريخ الحكومات تدل على هذه الثقافة. فقد كان رأي الحكام وكذلك المحكومين أن ملاك ومنشأ الحكومة هو القدرة والسيطرة. وبالطبع في ذلك الوقت الذي كان الملك يريد تولي العرش لم يكن يصرح بأن القوة والقهر هي منشأ حكومته. حتى جنكيزخان المغولي، فإنه عندما اجتاحت إيران، كان هذا الأمر بالنسبة لأتباعه وأتباعه أمراً معقولاً.

وفي عصرنا الحالي، نجد القوى العظمى أيضاً تتبع نفس ذلك المنطق. فأولئك الذين يسوقون الدول بالقهر والقوة، وأولئك الذين يدخلون إلى بيوت الشعوب التي تبعد عنهم آلاف الكيلومترات، وأولئك الذين يتحكمون بمصائر الشعب ويسلبونها الإرادة والحرية، وإن كانوا لا يتفوهون بأن منشأ حاكميتهم هو القوة، إلا أنهم يطبقون ذلك عملياً. وهذه الثقافة، وإن كان

هي الغالبة، إلا أنه يوجد إلى جانبها آراء أخرى. فأفلاطون كان يرى إن ملاك الحكم والحكومة هو الفضل والفضيلة، أي يقول "بحكومه الأفاضل" أو الصالحين. ولكن هذا الرأي كان حبراً على ورق وبحثاً للمدارس فقط. وفي عالمنا المعاصر، تعد الديمقراطية، التي هي إرادة الأكثرية، ملاك ومنشأ الحكومة. ولكن من هو الذي لا يعلم أن عشرات الأساليب الرذيلة هي التي تستخدم من أجل سوق إرادة الناس باتجاه إرادة المتسلطين والمقتدرين. لهذا يكن في جملة واحدة القول أن في ثقافة البشر السائدة، من البداية وحتى اليوم، وحتى تحكم الثقافة العلوية وثقافة نهج البلاغة حياة البشر، فإن منشأ الحاكمية هو القوة والتسلط، وسيبقى ولا غير.

وفي نهج البلاغة، نجد أمير المؤمنين "عليه السلام" لا يعتبر ما مر منشأ الحكومة، والأهم أنه "عليه السلام" قد أثبت ذلك عملياً. فعند الإمام علي "عليه السلام" المنشأ الأساسي للحكومة، هو مجموعة من القيم المعنوية. فالذي ينبغي أن يحكم الناس ويتولى أمورهم ينبغي أن يتمتع بخصائص معينة. فانظروا في كتبه ورسالته إلى معاوية وطلحة والزبير وعماله وأهل الكوفة ومصر. فقد كان يعتبر الحكومة والولاية على الناس ناشئة من القيم المعنوية. ولكن هذه القيم المعنوية لا تكفي لوحدها ليصبح الإنسان في الواقع حاكماً وولياً، بل إن للناس هنا دوراً حيث تعتبر "البيعة" مظهراً له.

ولأمير المؤمنين "عليه السلام" تصريحات عديدة فيما يتعلق بالمسألتين، منها ما كتبه للمعارضين لحكومته وأشرنا إلى ذلك سابقاً، ومنها في خطبه التي ذكر فيها أهل البيت وبين فيها القيم المعنوية التي تمثل ملاك الحكومة. ولكن هذه القيم - كما قلنا - لا تكون سبباً لتحقيق الحكومة، بل أن بيعة الناس في ذلك شرط:

"إنه بايعني القوم الذي بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى".

الحكومة حق أم تكليف؟

إن المسألة الأخرى التي تحوز على أهمية فائقة من نهج البلاغة هي هل ان الحكومة حق أم تكليف؟ وقد بين أمير المؤمنين "عليه السلام" في كلام مختصر ووجيز أن الحكومة حق وتكليف أيضاً. فليس كل ما توفرت له ظروف تولي أمور الناس. واستطاع أن يحصل على مقام واه، بشكل أو بآخر - كالأعلام أو الأساليب التي يرفعها طلاب الزعامة جيداً، ويستطيعون من خلالها جذب الناس إليهم - فإنه يحق له الحكم. فعندما تكون الحكومة حكومة الحق، فهذا يعني أن هذا الحق متعلق بالأشخاص محددين، ولا يعني ذلك طبعاً أن هناك طبقة متميزة. لأن الجميع في المجتمع الإسلامي يمكنهم أن يكسبوا تلك الفضائل. نعم، في العصر الذي تلى وفاة النبي الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم" كانت المرحلة استثنائية. أما نهج البلاغة فإنه يبين القضية بصورتها العامة، ويشير إلى هذا الحق مرات عديدة. ويقول الإمام "عليه السلام" في أول خلافته وحكمه في الخطبة المعروفة بالشقشقية: "وأنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي، ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير".

وحول ذلك اليوم الذي شكلت فيه شورى الستة قبل بيعة عثمان، يقول "عليه السلام": "لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري".

فالإمام يعتبر أن الحكومة حق. هذا الأمر واضح في نهج البلاغة. ولكن الإمام يقول بعدها مباشرة:

"والله لأسلمن ما سلمت أمر المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة".

ونفس هذا البيان قد صدر حول بداية حكومة أبي بكر وفي ذلك الوقت، حيث يقول "عليه السلام":

"فأسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام".

أي أنني أول الأمر لم أسلم ولم أبايع، ولكن عندما رأيت تلك الحوادث التي كادت تجر على الإسلام والمسلمين المصائب العظمى، لم يكن الأمر قابلاً للتحمل بالنسبة لي، فتركت حقي بالولاية. إذاً، فإن أمير المؤمنين "عليه السلام" يرى الولاية حقاً، وهذا ما لا يمكن إنكاره.

من المناسب أن ينظر جميع المسلمين إلى هذه القضية بعين واقعية. فهذا الأمر ليس له دخل بالجدال الذي يحصل أحياناً بين الشيعة والسنة. فنحن اليوم نعتقد أن على الشيعة والسنة أن يكونوا معاً، ويعيشوا معاً، وأن يعتبروا الأخوة الإسلامية أهم من كل شيء، وهذا أمر حقيقي. إن التفاهم والاتحاد يعد اليوم تكليفاً، ولقد كان دوماً كذلك. أما البحث العلمي والاعتقادي في نهج البلاغة فإنه يدلنا على هذه الحقيقة، ونحن لا نستطيع أن نغض أعيننا ولا نرى ما يظهر في نهج البلاغة بوضوح. فهذا ما يراه أمير المؤمنين "عليه السلام" حقاً، وكذلك كان يعده تكليفاً. ففي ذلك اليوم الذي أحاط الناس بالإمام علي "عليه السلام" حتى:

"فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطى الحسنان وشق عطايا".

فالناس اندفعوا بشوق ولهفة إلى الإمام علي "عليه السلام" يريدونه أن يكون لهم. ولم يكن أمير المؤمنين "عليه السلام" يرى للحكم شأنًا واقعياً. فالحكومة عنده ليست هدفاً، كما سيتضح في البحث الثاني. ولكن مع كل ذلك، قبل الحكم بعنوان التكليف الإلهي، ووقف ودافع عنه:

"لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر ... لألقيت حبلها على غاريها ولسقيت آخرها بكأس أولها".

ولقد كان يقول مؤكداً: "دعوني والتمسوا غيري".

ولكنه عندما رأى أن الأمر أصبح تكليفاً، وأن الأرضية مستعدة، وهو قادر على القيام بهذا الدور العظيم والأساسي، قبل ... فهل كانت الحكومة عند الإمام علي "عليه السلام" هدفاً أم وسيلة؟ إن الخط الأساسي الفاصل بين حكومة الإمام علي "عليه السلام" وحكومة الآخرين هو أن علياً "عليه السلام" لم يكن يرى الحكومة هدفاً، بل وسيلة لأجل الوصول إلى الأهداف المعنوية.

على المحققين، أن يلتفتوا إلى قدر نهج البلاغة بالنسبة لهذا الزمان. ونحن في الحقيقة إذا كنا اليوم نحتفل بألفية نهج البلاغة (مرور ألف عام على نهج البلاغة)، ينبغي أن نعلم أن هذا الكتاب العزيز كان من هذه الألف سنة على الأقل تسعمئة وخمسين سنة في عزلة وانزواء. فغير العلماء والخواص، لم يكن أحد يعمل عنه سوى الاسم. وأول ترجمة ظهرت على يد

مترجم عالم محترم جعل هذا الكتاب بمتناول أفهام الجميع وهو السيد علي نقي فيض الإسلام. وإنني أكن له تقديراً خاصاً واعتبر عمله عملاً مهماً.

وشيناً فشيناً، نزل هذا الكتاب إلى ميدان الحياة، ووصل إلى أيدي الناس. ولم يكن الناس يعرفون نهج البلاغة، وإنما كانوا يسمعون منه بعض الكلمات، وأكثرها في ذم الدنيا وقسم قليل في الأخلاق والباقي لا شيء. ومن بعدها أصبح في متناول الأيدي وصنفت حوله الشروح، والتحليلات بعنوان الشروح. وكل ذلك مورد تقدير، ولكن في مقابل العظمة التي لهذا الكتاب فلا يوجد شيء يذكر.

علينا اليوم أن نرجع إلى نهج البلاغة، وعلى الفضلاء والعلماء أن يقوموا بما يلزم، ولكن لا ينبغي للشباب أن يقفوا منتظرين للأساتذة والفضلاء وأهل العلم والأدب.

يجب أن يؤخذ "نهج البلاغة" بأبعاده المختلفة، ولهذا علينا أن نقيم الاجتماعات واللقاءات.

نظرة إلى خصائص عصر حكومة علي "عليه السلام"

محاضرة أقيمت في مؤتمر نهج البلاغة

طهران - حسينية الارشاد - رجب 1404 هـ

عصر حكومة علي "عليه السلام"

بعد فترة طويلة من الركود وعدم الاعتناء، يعاد اليوم عرض هذا الكتاب القيم والبنّاء للإنسان والمجتمع، والذي لا نظير له، ويتم إحياءه. وإنني أشكر من أعماق قلبي جميع الأخوة والأخوات الذين جاؤوا من داخل البلاد وخارجها للمشاركة في هذه المراسم.

لقد كان الأمر بهيجاً بالنسبة لي، أن أوفق مثلكم للمشاركة الفاعلة في هذا المؤتمر المهم، وأن أتناول "نهج البلاغة"، هذا المحيط العظيم بالبحث من أعماقه، وأشارك في الأيام التالية في بقية اللقاءات التي تدور حول هذا الكتاب الذي يعد قبلةً لآمالنا وتطلعاتنا الفكرية، ومن موقعه الأساسي يمكن أن نملاً الكثير من أوقاتنا بمطالعتة ودراسته وتدريسه في مجامعنا العلمية.

ولكن، وللأسف فبسبب عدم وجود هذه الفرصة وهذا الفراغ، أجد من اللازم أن أذكر ببعض الأمور حول هذا الكتاب القيم والأثر الخالد لكم أيها الأخوة والأخوات، وأيضاً للذين لم يحضروا هذا المؤتمر، ولكنهم جعلوا قلوبهم منوطة بهداية "نهج البلاغة" والإمام علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام.

نهج البلاغة هو تلك المقتطفات التي جُمعت بهمة وسعي السيد العظيم الشريف الرضي، وبحمد الله كان حتى يومنا هذا مرجعاً للخواص وللعلماء، وليس مجرد محور للمعرفة والثقافة العامة للناس. ولعله منذ أن جمع هذا الكتاب وأعد لم يوجد عصر مثل عصرنا الحالي، من حيث الحاجة اليه وفيما يتناسب وأوضاع هذا الزمان والمكان. ولا شك أن أهمية "نهج البلاغة" ترجع إلى جهات عدة. ولعله يمكن القول ان "نهج البلاغة" بما يتضمنه يعتبر من أكثر المباحث والمعارف الإسلامية عمدة، فكل ما يلزم الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي موجود في "نهج البلاغة": من التوحيد والعقائد الإسلامية وأصول الدين إلى الأخلاق والتهديب وتزكية النفس، فالسياسة والإدارة وقيادة المجالات الواسعة للنشاطات الاجتماعية إلى تنظيم الروابط الأخلاقية والعائلية، إلى الحرب والحكمة والعلم و...

فمطالب هذا الكتاب التي تشكل مجموعها دروس الحياة الاجتماعية للمسلمين لم تطرح بصورة بعيدة عن الحياة، فصاحبها هو رئيس دولة وحاكم كبير كانت سلطته مبسطة على بلاد واسعة جداً. هذا الإنسان العظيم الذي كان يحمل على عاتقه مسؤولية الحكم والقيادة، نطق بهذه الكلمات انطلاقاً من شعوره بهذه المسؤولية الكبرى. "نهج البلاغة" ليس مثل كتب الحكماء الذين يجلسون بعيداً عن ضوضاء الحياة وضجيج واقفياتها وقضاياها المختلفة، ليبيّنوا المعارف الإسلامية، بل هو كلام إنسان عميق الغور في معرفة الدين حمل هموم قيادة مجتمع كبير، وهو يمتلك بصيرة بكل المعارف الإسلامية والقرآنية، يضح قلبه بالمعرفة وهو في مقام المسؤولية، يتعاطى مع الشعب ويخاطبه ويجيبه عن أسئلته واستفهاماته.

هذه هي الأرضية التي صدر منها "نهج البلاغة"، ومن هذه الجهة يفترق جميع الروايات التي لدينا عن الأنمة المعصومين "عليه السلام". فالأنمة الأطهار "عليه السلام" لم يعيشوا في عصر حكومة يرتضونها، بل كانوا في ظل أزمة القمع والتنكيل. ولم تكن القضايا تجري على أسنتهم من موقع الحاكم والمسؤول عن إدارة دولة. أما أمير المؤمنين "عليه

السلام" فلقد كان يتحدث بعنوان الحاكم الإسلامي متوجهاً إلى مجتمع يعيش تحت إشرافه وحاكميته، وهذا ما يمثل القسم الأعظم من "نهج البلاغة". وما بقي هو نذر يسير مما صدر منه "عليه السلام" قبل عصر حكومته.

نحن اليوم نعيش في مثل تلك الظروف، ومجتمعنا يمر بمثل تلك الظروف. ومن الواضح أن نهج البلاغة ليس مختصاً ببلدنا، بل هو لكل العالم الإسلامي. هذا العالم الذي يتجه اليوم نحو صحوة وحياة إسلامية جديدة.

وفي بلدنا ومجتمعنا، وصلت هذه الثورة إلى شاطئ النصر والفلاح في ظل تعاليم أمير المؤمنين "عليه السلام" وبالاعتماد والرجوع إلى القرآن ونهج البلاغة. واليوم قد تم تشكيل مجتمع قريب من في أكثر أبعاد مجتمعنا وحكومتنا. فالיום هو يوم الاستفادة بكل ما أمكن من "نهج البلاغة"، وفي هذا المجال سأقدم المزيد من التوضيح.

إن الظروف التي كانت محيطة بعصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، تختلف وتختلف عن ظروف عصر حكومة أمير المؤمنين "عليه السلام". ففي عصر رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً من جميع الأبعاد، أي أن توجهه كان توجهاً إسلامياً بالكامل. ولكن الخصوصية التي طبعت هذا العصر طيلة السنوات العشر الأخيرة من عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم - في الحكومة الإسلامية - هي أن الصفوف كانت واضحة. وكانت الشعارات الإسلامية شعارات مشخصة وواضحة ومحددة. كان الصف الذي يقف مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله علنياً ومشخصاً. وكان كل من العدو والصديق معروفاً. حتى حركة النفاق التي ظهرت في المجتمع الإسلامي منذ بداية تشكيل الحكومة الإسلامية، وفي الحد الأدنى في مرحلة تواجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، فإنها لم تستطع أن تجعل المجتمع تحت تأثير ما يمكن أن تؤدي إليه حركة النفاق، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان حاضراً. وكانت الآيات التي تشير إلى المنافقين وتفضح تحركاتهم تنزل تباعاً، تهددهم وتفضحهم. والكثير منهم قد فضحوا وانكشفوا من خلال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان الآخرون يتعرفون إليهم. نعم، كان للنفاق تحرك ونشاط مؤذٍ، ولكن بشكل عام، كان الجو العام الغالب على المجتمع الإسلامي هو جو الصراحة والكشف. وأولئك الذين شاركوا في الحروب ضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كانت عداوتهم وأبعادها معروفة، كذلك كان مدى قربهم وبعدهم عن الإسلام معلوماً. لقد كان واضحاً مقدار مخالفة اليهود وقريش والقبائل الأخرى. ومن البديهي أن المسلمين حينها لم يكونوا حيارى فيما يتعلق بكيفية مواجهة أعداء الإسلام والمسلمين.

خاصية الزمان

أما عصر أمير المؤمنين "عليه السلام" فلم يكن فيه هذه الخصوصية، وكان ذلك أحد أكبر المشكلات والمعضلات لتلك الحكومة القصيرة، أي خلال أقل من خمس سنوات. ففي عصر أمير المؤمنين "عليه السلام" عندما كان الصفان أو الجيشان يلتقيان، كان كلاً منهما يؤدي الصلاة. وإذا حل شهر رمضان كان الكل يصوم. وكانت أصوات وأصداء تلاوة القرآن الكريم تسمع من المعسكرين. كان المسلمون في الجانبين عندما يتواجهون لا يشعرون بنفس الوضوح والصراحة وراحة البال التي وجدت وسادت في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. لهذا، وفي معركة صفين كانت الأسنلة والشبهات والتردد والحيرة تبرز من حين إلى آخر.

وكان أولئك الذين أسلموا قديماً، وعاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولادة الحكومة الإسلامية - كعمار بن ياسر - حلاً للمشاكل والعقد. ولكن الكثير كان حائراً أو مشوشاً. ففي الحوادث التي جرت في عصر أمير المؤمنين "عليه السلام" لم يكن اختلاف وتباين الصفوف واضحاً. ولقد كان الاشتراك في الشعارات يملأ الأجواء إلى الدرجة التي جعلت أمير المؤمنين "عليه السلام" يكرر مراراً: "لا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والصبر". (1) فالمقاومة لا تكفي لوحدها بل يلزم الوعي

والذكاء وحدة البصر. هذه هي خصوصية عصر أمير المؤمنين "عليه السلام" ، وآلام هذا الأمير وأوجاعه (صلوات الله عليه).

نحن نعيش اليوم في عالم كبير مليء بالشعارات الجميلة والبراقة التي تخب الأبطال، تقريباً مثل ذلك العصر. ونواجه كذلك هذه الواقعية في عالمنا الإسلامي الذي تتفاوت فيه الرؤية الإسلامية والوعي الإسلامي كما يتفاوت الإيمان عن الكفر. اليوم، نجد أن أوضح وأجلى الحقائق الإسلامية يتم التغاضي عنها وإهمالها من قبل بعض مدعي الإسلام في البلاد الإسلامية. اليوم هو نفس ذلك اليوم الذي كانت الشعارات فيه متشابهة ولكن التوجهات متغايرة بشكل تام. اليوم تتشابه الظروف مع ظروف حكومة عصر أمير المؤمنين "عليه السلام" . فالعصر إذًا ، عصر نهج البلاغة. واليوم يمكن أن نبصر الوقائع العالمية والظروف الاجتماعية من خلال النظر الدقيق والنافذ لأمر المؤمنين "عليه السلام" ونذكر الكثير من الحقائق ونتعرف إلى علاج الآلام والمشاكل.

هذا الذي يجعلنا محتاجين اليوم إلى "نهج البلاغة" أكثر من أي وقت آخر.

كانت هذه إحدى الجهات التي تبين لنا ضرورة العودة إلى نهج البلاغة، وإلى هذه الباقية التي جرت على لسان أمير المؤمنين ومولى المتقين "عليه السلام" . واليوم إن كل ما يضاف من العمل عليه وحوله - من إعداد المقدمات التي تجعلنا أكثر قدرة على فهمه والاستفادة منه - هو أكثر ضرورة ولزوماً من أي وقت آخر.

الحقيقة الأخرى التي تطرح نفسها وتجعلنا اليوم أكثر احتياجاً إلى نهج البلاغة وأشد رغبة به، هي أننا كنا طوال التاريخ، وللأسف نعاني من التحريف فيما يتعلق بالمعارف الإسلامية التي هي بين أيدينا بسبب اعوجاج الفهم والجهالة من جانب، وبسبب الأغراض السيئة للأعداء من جانب آخر.

فطوال تاريخ الإسلام، كان الجهل موجوداً، وكذلك الرؤى الضيقة والأهواء التي كانت تؤدي إلى عدم التعرف الصحيح إلى الحقائق والمعارف الإسلامية، بالإضافة إلى الأغراض والمآرب والخيانات وتعتمد تحريف الإسلام منذ بداية عصر ظهور الإسلام من قبل المتجبرين والأشخاص الذين كانوا يرون في صفاء الإسلام ووضوحه خطراً على مصالحهم.

وكنا طوال تلك الفترات محتاجين إلى ينباع الخالصة والأفكار الإسلامية الصافية والنظام الفكري الذي يمكن الاعتماد عليه. ولحسن الحظ كان القرآن الكريم موجوداً دائماً في أيدي المسلمين، وإن لعبت بفهمه تلك الأيدي السوداء والأنظار المعوجة والمآرب السيئة، ولكن بحمد الله بقي متن القرآن سالمًا وبعيداً عن أي تدخل وتصرف مغرض أو جاهل. ولكن هذا لا يعني عدم ضرورة الإبقاء على سلامة ومثانة ينباع الأخرى الصافية للمعرفة عند المسلمين كما هو حال القرآن عندهم. فمع اتساع نطاق الثقافة الإنسانية وتعمق المعرفة الحاكمة على الناس، فإن هذا العصر هو عصر يوجب على البعض أن يعملوا على جمع تلك المعارف التي يمكن أن تزيد من طمأنينة الإنسان وإيمانه والتي لم تتعرض للتحريف وبقيت خالصة وسالمة، وأن يضعوها بين أيدي أهل الاستنباط والاجتهاد والمفكرين والخبراء، خصوصاً بعد مرور زمان طويل فصلنا عن صدر الإسلام.

هذا العمل الذي كان ينبغي أن ينجز بالنسبة لما يتعلق بالأحاديث، قد قطعه نهج البلاغة. فهذا الكتاب قد قطع هذه المسافة الزمانية الطويلة التي فصلتنا عن صدر الإسلام في أقرب مدة وأسلم رؤية بالنسبة للمعارف الإسلامية.

ولو قمنا بالتحقيق حول نهج البلاغة، وجمعنا ذلك المقدر من خطب أمير المؤمنين "عليه السلام" التي لم تذكر في نهج البلاغة، وعمدنا على التحقيق في سندها والخصائص التي جعلها معتبرة ومسلمة وقطعية، وأوصلنا نهج البلاغة إلى مجموع الخطب الخمسمائة التي نقلت عن أمير المؤمنين "عليه السلام"، نكون بذلك قد قدمنا خدمة كبرى للمعارف

الإسلامية في القرن الهجري الخامس عشر، ونكون أيضاً قد قدمنا للمسلمين مع مرور هذه الفترة المديدة عن صدر الإسلام، نبعاً غنياً لا ينضب، وهو مورد قبول جميع المؤمنين بالإسلام. وهذه المجموعة المطلوبة ستمدنا بفهم صحيح للإسلام، وما أعلى ما سترتقيه أفهامنا فيما يتعلق بالمعارف الإسلامية حينها. وهذا العمل ممكن، خصوصاً في ظل نظام الجمهورية الإسلامية التي قامت على أساس القرآن و"نهج البلاغة". إن هذا العمل ينبغي أن يحصل حتماً، وأملنا بمساعي الأخوة الأعزاء في مؤسسة "نهج البلاغة" وكل الذين يساعدونهم أن يعملوا على تحقيق هذه الخدمة الكبرى لعالم الإسلام.

تصوير شخصية علي "عليه السلام" في نهج البلاغة

بعد آخر من الأبعاد القيمة والمهمة لنهج البلاغة هو ما يرتبط بتصوير شخصية أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، والذي نحن بأمرنا الحاجة إليه في أيامنا هذه.

فأمير المؤمنين "عليه السلام"، هذه الصورة المجهولة، وهذا الإنسان السامي والنموذج الإسلامي الكامل الذي أراد الإسلام صناعة البشر على أسامه، يمكن التعرف إليه من بين سطور وأوراق نهج البلاغة بشكل كامل. فنهج البلاغة في الحقيقة هو كتاب معرفة علي بن أبي طالب "عليه السلام". فهل يمكن أن يوجد شخص يصف ويبيّن بهذه الروعة والجمال تلك الأسرار والأفاق العجيبة للمعرفة الموجودة في نهج البلاغة وهو غير واصل إليها. في نهج البلاغة نجد جميع أبعاد الشخصية الإنسانية الكاملة: من المعرفة والأخلاق، والخصال الخاصة للإنسان التي هي من مختصات تعاليم الإسلام، نجد لها مجسدة في إنسان كامل هو أمير المؤمنين "عليه السلام"، وليس هذا الأمر مهماً من جهة التعرف إلى شخصية أمير المؤمنين فحسب، بل من جهة التعرف إلى الإسلام، وبرامجه في صناعة مثل هذا الإنسان. اليوم تسألنا البشرية المعاصرة لنا: "ما هو الإنسان الذي يعدّه ويبنيه هذا الإسلام الذي نتحدثون عنه وتعتقدون أن رسالته عالمية". ولأجل الإجابة، ينبغي أن نسأل أنفسنا من هو الشخص الذي يمكن إظهاره وهو أفضل وأعظم وأعلى وأكثر جامعية من علي بن أبي طالب "عليه السلام"، كما ينبغي أن نعتقد بأن شخصية علي بن أبي طالب "عليه السلام" ليست بارزة في أي مكان آخر مثل "نهج البلاغة".

لقد قيل الكلام الكثير والعميق حول عظمة هذا الكتاب وكلماته وخطبه، ويمكن إضافة الكثير أيضاً. وأنا أتحدث هنا من باب الإشارة لأشكر من صميم قلبي أولئك الذين أقاموا هذا المؤتمر وسابقه وهذا النشاط الذي يهدف إلى التعرف على نهج البلاغة.

فرغم أنه قد مضت فترة طويلة نسبياً خرج فيها نهج البلاغة من عالم الإهمال ووصل إلى أسماع الناس وصار منتشرًا بينهم، إلا أنني ما زلت أرى ضرورة القيام بالتحقيقات العلمية والشاملة حول "نهج البلاغة". والأعمال التي أنجزت بهذا الصدد وذكرت في الكتاب عن نهج البلاغة، كلها مورد تقديرنا وشكرنا.

- تبويب مطالب نهج البلاغة وشرح الأجزاء الأساسية

لعل الكثير من الأعمال التي أنجزت على مدى أكثر من ألف سنة من تدوين هذا الكتاب الشريف، ما زالت في المكتبات بصورة مخطوطات، وينبغي البحث عن هذه الأعمال القيمة. وربما قد تعرّض بعضها للتلف نتيجة حوادث الزمان.

إحدى الأعمال التي ينبغي أن ينجزها هذا المؤتمر إعداد فهرس لأهم التحقيقات التي ينبغي إعدادها حول نهج البلاغة وعرضها على العلماء. ولعلّه يمكن تعداد عشرات الأعمال اللازمة التي يحتاجها هذا الكتاب، ما ينبغي القيام به فردياً أو

جماعياً. وبهذه الطريقة يعلم العلماء والمؤلفون وأصحاب الرأي والمشغوفون بنهج البلاغة ما هي الأولويات في هذا المجال. وهنا سوف أشير إلى عدة أعمال تحوز على أهمية وضرورة مبرمة.

- ترجمة نهج البلاغة إلى الفارسية

إنني بالطبع مطلع تقريباً على ما أنجز، ولا أريد - لا سمح الله - أن أنظر إلى الجهود الكبيرة في مجال نقل نهج البلاغة إلى الفارسية نظرة عدم تقدير. ففي المؤتمر الذي عقد قبل ثلاث سنوات ووفقت للمشاركة فيه أعربت عن شكري للعالم الجليل فيض الإسلام الذي ترجم نهج البلاغة لأول مرة إلى اللغة الفارسية وجعله بمتناول الناطقين بها.

وأنا اليوم أعرب عن تقديري مرة أخرى. وكذلك أشكر كل الذين ترجموا هذا الكتاب ضمن ترجمات منتخبة أو حرة، بصورة بيان المعنى. لكن أريد أن أقول أن مكان الترجمة الكاملة والشاملة لنهج البلاغة، كما هو مكان الترجمة الكاملة الواضحة والمناسبة للقرآن، ما زال خالياً في مجتمعنا، وبرأيي فإن القصور والغفلة التي ما زالت لحد الآن هي سبب التقاعص عن هذا الأمر.

إنني أرجو من مؤسسة نهج البلاغة أن تتابع هذه القضية بصورة عاجلة وجديّة، وكذلك أكرر طلبي ورجائي للذين يمكنهم أن يعدوا ترجمة جيدة للقرآن الكريم. لقد تأخرت الجمهورية الإسلامية بعد خمس سنوات شيئاً ما في هذا المجال. وينبغي الإسراع فيه، وكلما مرّ الوقت ازداد التأخر. وأعتقد أنه لا إشكال في أن يبدأ عدة أشخاص بترجمة هذين الأثرين المقدسين ويسعوا جهدهم لإنجازهما. وعلى كل حال لن يكون هناك ترجمة كاملة تماماً، حتى إذا سمعنا أن شخصاً يعمل على ترجمة "نهج البلاغة" أو القرآن فسحب أيدينا من هذا العمل. فليبدأ كل من يجد في نفسه الشوق والرغبة بهذا العمل. ولو كان لدينا عشر ترجمات جيدة جداً لهذين الكتابين الشريفين فليس هذا بالأمر الزائد. ولا يوجد أي إشكال في وجود سلائق وأذواق متعددة وآراء مختلفة، كل واحد منها يبيّن الآية أو الجملة من زاوية أو بعد خاص ويُقرّب القارئ إلى المعاني الواقعية. وعليه، أرى أن هذا العمل يتمتع بالأولوية في أيامنا هذه. (2)

- تبويب نهج البلاغة

من الأعمال الأخرى الضرورية في مورد نهج البلاغة، هو التبويب ضمن عناوين، أي التصنيف الموضوعي. طبعاً، هناك أعمال أنجزت في هذا المجال، وبعض المحققين والعلماء الكبار في زماننا قام بمثل هذا العمل، وطبع له عدة مجلدات وهو في مقامه قيم. ولكن تحت العناوين الكلية - التي أظن أنها قد بلغت عنده ثلاثين عنواناً - يمكن التفريع إلى عشرات العناوين الأخرى. (3) وهذا العمل أيضاً مكانه بالنسبة للقرآن ما زال خالياً ولم ينجز بعد. يجب أن نكتب تفصيلاً للآيات يشمل معظم المواضيع التي أشير إليها في القرآن والتي لم نتمكن إلى اليوم من الوصول إليها. أما في مورد نهج البلاغة، فإن إعداداً مفصلاً لمطالبه وموضوعاته له أهمية قصوى. فهذا الكتاب هو حقاً محيط عميق لا متناهٍ، ولا يوفق الجميع للسير فيه كما هو أهل له، أو يتحقق لهم الغور فيه.

في حين أن الكثير من مطالب ومعارف هذا الكتاب مما هو ضروري وممكن لعامة الناس، الذي ينبغي أن نحقق هذه الإمكانيّة لهم وللباحثين والمحبين لكي يصلوا على ما يبحثون عنه بسهولة.

- التبويب بلحاظ اعتبار السند

من الأعمال الأخرى التي من المناسب القيام بها في نهج البلاغة، هو التبويب بلحاظ اعتبار السند. ولا شك أن بعض نهج البلاغة يتمتع بمستوى عالٍ من الاعتبار والثوق الروائي. وبعضه ليس بهذا المستوى. وحول أسانيد نهج البلاغة أنجزت بعض الأعمال وطبعت عدّة كتب، اثنان أو ثلاثة أو أكثر. ولعلّه وجد عند القدماء مثل هذا العمل مما لم يطلع عليه الكثير. ولكنه يلزم القيام بإعداد تبويب ترتيبى بلحاظ السند واعتباره، بحيث إذا رجعنا إلى إحدى الخطب أو الكلمات أو الرسائل، نعلم مدى اعتبارها بلحاظ السند وإلى أي مدى يمكن الاعتماد عليها. وبالطبع يمكن إعمال جميع الشواهد والقرائن في هذا المجال. وهذا الأمر وإن لم يكن مورد حاجة لعامة الناس، ولكنه حتماً يحوز على أهمية عند المحققين والعلماء والمهتمين بهذا الحقل.

- ترجمة مفردات نهج البلاغة

وعمل آخر ينبغي القيام به هو ترجمة مفردات نهج البلاغة للناطقين بالفارسية، وكذلك للناطقين بالعربية. وطبعاً، يوجد في هوامش بعض طبقات نهج البلاغة من قام بهذا العمل مثل المرحوم محمد عبده وغيره، ولكن هذا ليس كافياً. إنّ هذه المفردات المنتشرة في هذا الكتاب بثقلها الأدبي وأصولها الفنية وفصاحتها وبلاغتها الخارقة تحتاج إلى عمل مستقل، أوسع من شرحها الأولي. وخصوصاً الأمر أنه ينبغي إعداد تفسير كامل وعميق لمفردات نهج البلاغة.

- ربط الأجزاء المتفرقة للخطبة الواحدة

وإحدى الأعمال التي كنت أشعر بأهميتها منذ فترات، هو القيام بوصل الأجزاء المتفرقة لبعض الخطب التي كان السيد الرضي رحمة الله عليه قد فصلها. لقد لاحظتم في بعض الخطب أنه في وسطها يقول "ومنها". ولا شك أنه قد أسقط شيئاً من الخطبة وإلا لم يلزم أن يقول "ومنها". وفي بعضها أن الخطبة لم تنته ولعلنا نستطيع أن نجد الضائع أو المفقود منها في نفس نهج البلاغة، وحتماً الكثير منها يمكن العثور عليه في كتب الحديث المختلفة.

على أية حال، قد نجد قسمين من خطبة واحدة في غاية الأهمية، ولكن يوجد بينهما فراغ. لهذا ينبغي على أصحاب الهمم أن يعملوا على متابعة هذا الأمر والعثور على هذه الفراغات لتعبئتها، حتى نصل قدر الإمكان أجزاء الخطبة المتفرقة ببعضها البعض.

وأنا أعتقد أن المرحوم السيد الرضي رضوان الله عليه، قد صنّف هذا الكتاب وهو ناظر إلى الفصاحة والبلاغة والجماليات الفنية أكثر من أي شيء آخر، والعنوان الذي أطلقه على الكتاب يؤيد هذه الفكرة. واليوم فإن مسألة البلاغة في هذا الكتاب ليست في الدرجة الأولى من اهتمام شعبنا، بل المضمون والمحتوى. إننا بحاجة للمضامين والمعاني.

وفي الأساس أكثر الناس لا يفهمون شيئاً من جمال هذه الكلمات، فنحن نتكلم بالفارسية. ولعلّ الكثير من الناطقين بالعربية أيضاً، ومع مرور أكثر من ألف وثلاثمئة سنة على صدور هذه الكلمات، وبسبب التحول والتبدل الذي طرأ على اللغة بشكل طبيعي، لا يتمكنون من إدراك الشيء الكثير من فصاحة وبلاغة وجماليات ما ورد فيه. لهذا، ينبغي أن نعدل عن تلك الرؤية التي حكمت تدوين هذه المجموعة من باب البلاغة والفصاحة والقيم الفنية. ولا أقول أن نغضّ النظر عنها كلياً، لأن هذا الوجه من الناحية الأدبية والفنية يتمتع بمزايا خارقة. ومعروف أن القيم والمزايا الفنية تساهم كثيراً في بقاء أي نص وفي تأثيره العميق وانتشاره الواسع. فهذا مما لا شك فيه، إلا أن الأمر الذي يحوز على الدرجات الأولى من الأهمية بالنسبة لنا اليوم هو المضامين.

وفي هذا المجال يوجد الكثير من الأعمال التي يمكن القيام بها. وكما ذكرت فإنني أكرر اقتراحي الأول:

أعدّوا فهرساً لكل الأعمال الضرورية واللازمة في نهج البلاغة، لكي يتضح ما هي الأمور المناسبة.

ولا يوجد أدنى شك أن هذا سيوجد الرغبات والحوافز والابتكارات والمجالات الجديدة.

إنني أشكر مرة أخرى جميع الأخوة المسؤولين والعاملين، على هذا الاهتمام الذي أبدوه لنهج البلاغة، وولاهتمام بهذا

المؤتمر، وأرجو أن يكون علوّ همهم سبباً لإيجاد هذه الخدمة العظيمة لأمة الإسلام، ويكون "نهج البلاغة" مورداً للمزيد

من الاستفادة، ويكون ذلك قدوة لجميع المسلمين الذين لم يطلع أكثرهم على نهج البلاغة أبداً.

ضرورة نشر تعاليم نهج البلاغة في عالم الإسلام

محاضرة أقيمت في المؤتمر الخامس لنهج البلاغة

طهران - حسينية الإرشاد - رجب 1405 هـ

إنه لباعث على فائق السرور أن نشاهد عقد مؤتمر آخر حول نهج البلاغة بفضل همّة الأخوة الأعزاء في المؤسسة. وإنني باعتباري فرداً مسلماً، وكوني قضيت مدة من حياتي الفكرية ومطالعاتي في مجال أبحاث نهج البلاغة، وباعتبار أنني أحد المسؤولين في نظام الجمهورية الإسلامية، أعتبر هذا التحرك مباركاً وضرورياً ويؤدي إلى نتائج حسنة. كذلك أعتبر هذه المرحلة الحالية مرحلة ابتدائية باتجاه الوصول إلى المراحل النهائية.

تحوز همّة الأخوة على تقدير عالٍ، وعلينا أن لا نقتنع بما وصلنا إليه، بل أن نعتبر خدمة "نهج البلاغة" عملاً دائماً ومستمرّاً. وبالطبع في المدة التي مرّت بين المؤتمر السابق وهذا المؤتمر، أنجزت أعمال وجزت مساح عديدة في مجالات عدّة حيث تم إطلاعي على بعضها. ولكن أريد أن أؤكد على أن تكون هذه الاجتماعات مقدّمة لأعمال عظيمة وكبرى. لقد طويلاً زمنياً بعيداً عن الارتباط بنهج البلاغة. وعلينا أن نغتنم فرص اليوم لجبران تلك النقصان.

ومما لا شك فيه أن الذين عملوا في نهج البلاغة ليسوا قلّة، سواء في إيران أو بعض البلدان الإسلامية الأخرى، ولكن الأعمال الأساسية التي يمكن أن تنشر مدرسة نهج البلاغة في أجواء العالم الإسلامي كلّها ما زالت تنتظر دورها، وإن كانت مقدمات هذه الأعمال تأخذ طريقها تدريجياً إلى حيّز التحقق. إن "نهج البلاغة" في الواقع كنز عظيم لا يمكن بهذه السهولة الوصول إلى حقيقته، أو فهمه، وإذا فهمناه أتى دور العمل الأساسي وهو الاستفادة والتطبيق. وإننا ولحد الآن لم ندرك هذه الحقيقة، وهذا الأمر مشترك مع الكثير من المصادر الإسلامية الثرية. ولكن "نهج البلاغة" له وضع استثنائي بما يتمتع به من رتبة ومقام عالٍ، ويجب التعامل معه على أساس أنّه كنز استثنائي.

عندما أتأمل أجد أن الأمل الذي كنا نعيشه وما زلنا هو أن يصل مجتمعنا إلى حالة الألفة والأنس بهذا الكتاب العزيز. وبالنسبة لمن هو مثلي لا يتوقع منه أن يقوم بالأعمال التحقيقية، إلا إذا وفقنا الله تعالى للرجوع ذات يوم إلى حجرتنا الدراسية والاشتغال بمثل هذه الأعمال. وأريد هنا أن أطلق تحذيراً فيما يتعلق بالتوجه الذي نحمله حول "نهج البلاغة". إننا لا نحمل هذا التوجه بالشكل المطلوب، وكأننا لا نعلم أي كنز للمعرفة اللامتناهية قد أودع في هذا الكتاب، أو كأنه لم يتضح إلى الآن وبشكل كامل بالنسبة لشعبنا وحتى بالنسبة لمجتمعنا أهمية الرجوع إلى هذا النبع العظيم الموجود في هذا الكتاب الذي لا نظير له.

أهمية قَدَم نهج البلاغة

أولاً إن هذا الكتاب يُعدّ من الكتب الإسلامية الأولى. وفي هذه الظروف التاريخية حيث فصلنا عن صدور الإسلام حوالي 1400 سنة، تتمتع المصادر ذات الأول والأصيل بأهمية خاصة وذلك لأنّ مع مرور الزمن يزداد الميل إلى التأويل وتزداد التوجهات المأولة، وهذا الأمر يعدّ أحد آفات الفكر الإلهي (الإلهيات؛ الأبحاث في مجال ما وراء الطبيعة). فعندما يقطع الزمان شوطاً بعيداً عن نشوء الدين، فإن الأذهان، والابتكارات والميول الباطنية للأشخاص الأذكياء تسوقهم نحو الاستنباط الذي نراه أكثر ما يعتمد على السلائق. وهذا هو السبب اللامرني وراء تحريف الأديان. فالأديان السابقة التي حُرِّفت، كان أحد أهم آفاتنا أن متونها الأساسية الأولى لم تبقى سالمة بشكل كامل.

نحن بالطبع عندنا القرآن المصون من التحريف، وهذا بنفسه امتياز كبير جداً، وهو كان عاملاً لوجود محور للاستنباطات الإسلامية المختلفة مع تلك الوفرة الكبيرة في السلائق المتعددة. أي أنّ الأمر في النهاية كان يرجع إلى نقطة تعتمد عليها كل الآراء والعقائد المختلفة، وهي القرآن. لكن هذا لم يكن كافياً، لمنع التأويل واتباع الآراء والسلائق والأهواء والبدع. وهنا نجد أمير المؤمنين "عليه السلام" يقول لعبدالله بن عباس: "لا تخصمهم بالقرآن فإن القرآن حمّال ذو وجوه" (4) (مشيراً إلى الخوارج).

حقاً، فإن أولئك الذين طبقوا قوله تعالى: {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله} (5) - الذي نزل بحق علي "عليه السلام" - على ابن ملجم. كيف هو ذهنهم، وهل يمكن معهم الاستناد والرجوع إلى القرآن؟

وقد شاهدنا هذه الحقيقة في أيامنا هذه، أشخاص يعتمدون على آيات القرآن مستخدمين وسائل التأويل.. في مثل هذه الظروف كلما كانت النصوص والتمتون الإسلامية أقرب إلى صدر الإسلام، كانت إمكانية الاستنباط الصحيح بالنسبة للمحققين أكبر.

أهل التأويل والانتقاط

في الماضي شاهدنا بأنفسنا كيف كان المؤلّة، أو بعبارة أخرى الالتقاطيون لا يعتنون أبداً بالروايات والأحاديث. فبمجرد أن نقول "حديث" يقولون: "ألا تؤمنون بالقرآن؟". وكأنه يوجد تعارض بين الاعتقاد بالقرآن والاعتماد على الحديث!.

في البداية كنا نتعجب، ولم نكن ملتفتين كثيراً. وعندما شاهدنا كيف يتصرفون بالقرآن وكيف يردون الحديث الصريح والصحيح، فهمنا حينها سبب مخالفتهم للحديث. وفي ذلك الموضوع نجد أمير المؤمنين "عليه السلام" يقول لابن عباس: "ولكن حاججهم بالسنة لأنها لا تقبل التأويل". ونحن لو استطنا في مثل هذه الظروف الحالية للعالم الإسلامي - حيث يمثل المسلمون نسبة كبيرة من السكان ويشغلون مناطق واسعة من العالم، وتحكمهم الآراء والعقائد والمذاهب المختلفة - أن نحبي متون صدر الإسلام فإننا نساهم كثيراً في إيجاد محور أساسي لهذه الاجتهادات.

فانظروا إلى نهج البلاغة من هذه الزاوية. لأنه لا مجال لمقارنة أي كتاب رواني لفلان الصحابي أو التابعي - الذي جاء بعد خمسين أو مئة سنة من الهجرة - بنهج البلاغة. إن نهج البلاغة هو كلام أول من آمن بالوحي المحمدي، وهو كلام خليفة الرسول الذي اتفق جميع المسلمين على خلافته، وكلام إمام هو باعتقاد الشيعة والكثير من أهل السنة أفضل الصحابة. إنسان في هذا المستوى من العظمة والأهمية، وقد بقي عين كلامه، وخطبه. ويمكن أن يكون مظهراً لمتن عظيم وأصيل المعارف

الإسلامية. ففيه الأخلاق، والزهد والقيادة في المجتمع، والنظام السياسي، والنظام الاجتماعي والعرفان. ونحن قادرون على أن نجد الأصول الاعتقادية الكاملة والجامعة للإسلام في هذا الكتاب.

القرآن ونهج البلاغة

إن هذا الكتاب عندما يوضع إلى جانب القرآن، فإنه يعد تالي القرآن. فليس لدينا كتاباً آخر له هذا المستوى من الاعتبار والجامعية والأقدمية. لهذا فإن إحياء نهج البلاغة ليس وظيفتنا نحن الشيعة فقط، بل هو وظيفة جميع المسلمون. أي أن كل من يقبل بعلي بن أبي طالب "عليه السلام" وهو مسلم - لأنه لا يوجد من المسلمين من لا يقبل هذا العظيم - فعليه أن يحيي نهج البلاغة بعنوان كونه تراثاً لا نظير له في الإسلام. وليس هذا الإحياء في كثرة طباعته، فقد حصل هذا، بل بمعنى العمل والتحقيق في مجاله، كما حصل هذا الأمر في مجال القرآن الكريم، حيث أُعدت التفاسير الكثيرة، وكذلك في علوم القرآن. ومثلما يُقرأ القرآن ينبغي أن نقرأ نهج البلاغة، لأنه تالي القرآن. ومثلما يعتبر المسلمون أنفسهم مكلفين بإيجاد رابطة عميقة مع القرآن، ويعدون الجهل به منقصة، كذلك ينبغي عدّ الجهل بنهج البلاغة نقصاً.

النقطة الأخرى الفارقة الأهمية، وهي برأيي تكليف على الجميع، أن نتعرف جيداً على موقع صدور هذه الكلمات وأحوال قائلها، وأن نعلم أن هذه المعرفة والوعي هما علاج شاف وسريع بالنسبة للكثير من أمراض مجتمعا. لأننا عندما نطالع في حال قائل هذه الكلمات، نجد أنه ليس إنساناً عادياً، بل له خاصيتان تجعل كلامه من هذا المنطلق كلاماً استثنائياً. إحدى هاتين الخاصيتين هي حكمته، والأخرى حاكميته. فهو "عليه السلام" أولاً حكيم ومن الذين {يؤتي الحكمة من يشاء}. (6) فقد أوتي الحكمة الإلهية حيث عرف العالم والإنسان وحقائق الخلق وحقائق الوجود. فهو الحكيم، الذي له اطلاع على حقائق الوجود. وهذا الاطلاع - عند من يعتقد بأنه إمام معصوم - قد حصل بالإلهام الإلهي، وباعتقاد الذين لا يرون عصمته قد حصل عليه بتعليم الرسول الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم" ومن الإسلام. وعلى كل حال فلا يشك أحد بأنه إنسان بصير وحكيم استفاد من حكمة الأنبياء واطلع على حقائق الخلق وخرانن الله. فهذه هي الخاصية الأولى له. والخاصية الثانية هي أنه كان "عليه السلام" في زمان خاص حاكم المجتمع الإسلامي ويتحمل مسؤولية الحكومة. ومن هاتين الخاصيتين كان الكلام ينبعث ليفوق الحكمة العادية، ويجعله متميزاً ببعد إضافي.

ولكن حقاً، ما هو كلامه؟ وماذا كان يقول في كلماته؟ بماذا نطق هذا الأمير الحكيم الذي حكم المجتمع الإسلامي؟ من البديهي أن حديثه سيكون مطابقاً للحاجات، وأنه سيقول ما يمثل حاجة قطعية في تلك المرحلة من تاريخ الإسلام. وليس من الممكن أن يقول غير ذلك. ليس من المتصور أن يصف هذا الطبيب الحاذق المشفق علاجاً ودواءً لا يحتاج إليه المريض. لهذا سنجد في هذه الوصفة الطبية لأمر المؤمنين "عليه السلام" شيئاً آخر. فما هو؟ إنه وضع المجتمع الإسلامي في ذلك الزمان.

ولن نجد تأويلاً وتفسيراً ناطقاً بهذا القدر. ولن يكون هناك تقرير دقيق بهذا المستوى، بحيث يبين لنا أوضاع وظروف المجتمع في ذلك الزمان، كما بيته لنا علي بن أبي طالب "عليه السلام". إننا نعيش اليوم في عصر نميل إلى تشبيهه بعصر صدر الإسلام، أي الولادة الجديدة للإسلام. فذلك العصر هو الولادة الأولى، وهذا العصر هو الولادة الثانية. وفي ذلك العصر كانت أحكام الإسلام تطبق، ونحن اليوم نتجه نحو تطبيق هذه الأحكام. وفي ذلك الزمان كان أعداء الإسلام أي أعداء هذه المعارف والأحكام مخالفين للمجتمع النبوي، وهؤلاء الذين يخالفون الثورة الإسلامية ليسوا مخالفين للجمهورية الإسلامية،

قد فتنوا بها. فبعد ثلاث وعشرين سنة من وفاة رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" أسر الناس في الدنيا، وكان سعي أمير المؤمنين "عليه السلام" لتحريرهم منها.

في "نهج البلاغة" عندما نصل إلى موضع ذكر الدنيا نلاحظ شيئاً بارزاً، ونشعر أن في كلام أمير المؤمنين هنا لهجة ولوناً آخر. لم أقدر على عدم ذكر هذا المقطع، من كلماته التي تبلغ المنات من شدة جماله، "فإن الدنيا رنقٌ مشربها رَدَعٌ مشرعها يُونقُ منظرها. ويوبقُ مخبرها، غرورٌ حائل، وضوءٌ آفل، وظلٌّ زائل، وسنادٌ مانل، حتى إذا أنسَ نافرُها، واطمأن ناكِرُها، فَمَصَّتْ بِأرجْلِها وَقَصَّتْ بِأحْيِلِها، وأقصدتْ بِأسمِهمُها، وأعلقتِ المرءَ أوهاقَ المنيةِ قاندةً له إلى ضنكِ المضجعِ ووَحْشَتِهِ المرجع". (7)

فانظروا كم هو جميل هذا الكلام. إنه غير قابل للترجمة. ينبغي أن يقوم البلغاء والشعراء بدراسة كل كلمة على حدة قبل ترجمتها. وما يلفت نظر الإنسان، وما لفت نظري هو أنه عندما يتحدث عن الدنيا يقول: "غرور حائل، وضوء آفل، وظل زائل، وسناد مانل" ثم يذكر نقطة من بعدها: "حتى إذا أنسَ نافرُها" فالدنيا بكل مظاهرها وخدعها تظهر لأولئك الذين كانوا قد فروا واستوحشوا منها بحيث تجعلهم بعد ذلك يأنسون بها "واطمان ناكرها" وأولئك الذين لم يكونوا مستعدين لمد أيديهم إليها، تراهم بعدها يشعرون بالطمأنينة إلى جانبها.

هذا هو المرض، فأولئك الذين كانوا مع رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" وقد تركوا أموالهم وعيالهم وأوطانهم وتجارتهم في سبيل الإسلام وهاجروا إلى المدينة مع الرسول، وطووا على الجزع والمخمصة والشدة، نراهم بعد عشرين، ثلاثين سنة من وفاة رسول "صلى الله عليه وآله وسلم" عندما يتوفون يحتاج ورثتهم إلى الفؤوس ليقتسموا الذهب الذي تركوه. هؤلاء هم مصداق قوله "عليه السلام": "حتى إذا أنسَ نافرُها واطمأن ناكرها". فهذا أوج كلام أمير المؤمنين "عليه السلام"، وهو نموذج من كلماته "عليه السلام" في موردنا الدنيا.

ومن المواضيع الأخرى التي تكرر ذكرها في نهج البلاغة التكبر. الذي هو المحور الأساسي للخطبة "القاصعة". وبالطبع لم يرد فقط في هذه الخطبة، بل تكرر في مواضع كثيرة.

قضية التكبر التي تعني اعتبار النفس أفضل من الآخرين، هي تلك الآفة التي أدت إلى تحريف الإسلام والنظام السياسي الإسلامي، وأبدلت الخلافة إلى سلطنة، وقضت تقريباً على جميع إنجازات النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" في برهة قصيرة من الزمان. ولهذا كان أمير المؤمنين "عليه السلام" يولي هذا الموضوع إهتماماً كبيراً كما نرى في "نهج البلاغة". ففي هذه الخطبة القاصعة التي تعرفونها، ما أجمل وأروع ما يبيته الإمام "عليه السلام" حول هذا الأمر محذراً منه بشدة، أنقل لكم الآن قسماً منه:

"فالله الله في كِبْرِ الحَمِيَّةِ، وفخر الجاهلية، فإنه ملافحُ الشنآن، ومنافحُ الشيطان التي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية حتى أعتقوا في حنادس جهالته ومهاوي ضلالته ذُللاً عن سببائه، سُلُساً في قياده... ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرانكم الذين تكبروا على حسبهم وترفَعوا فوق نسبهم". (8) هذا هو تحذير أمير المؤمنين "عليه السلام".

إنه يحذر أفراد المجتمع بشدة من شينين: الأول التكبر والاستعلاء، والثاني من قبول هذا التوجه الخاطئ من الآخرين. فلا ينبغي أن تعتبروا أنفسكم أفضل من الآخرين، ولا ينبغي أن تتقبلوا مثل هذا التصور الخاطئ من غيركم. فأمرير المؤمنين

"عليه السلام" يؤكد على عدم قبول التكبر من الآخرين، وهو "عليه السلام" لا يتكبر ولا يقبل ذلك من أحد. فهذان ضامنان لتطبيق الأخلاق الإسلامية بين الناس وبين مسؤولي المجتمع الإسلامي.

وهذا يحكي عن وجود هذا المرض أو هذين المرضين. وإذا أردتم المزيد من التأكد اذهبوا واطالعوا التاريخ. وأولئك الذين لهم إطلاع على ذلك العصر يعلمون أن أسوأ الأمراض في ذلك الوقت أمران: الأول أن مجموعة من الناس كانت تعتبر نفسها أفضل من الآخرين، قريش من غير قريش، واتباع هذه القبيلة من اتباع هذه القبيلة. وللأسف، فإننا نلاحظ أن هذا المرض قد أنتشر بسرعة بعد وفاة رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، ولهذا كان أمير المؤمنين "عليه السلام" يقول: "فإنه ملاقح الشنآن...". أي أنه محل بروز وتولد الاختلاف والنزاع، وعندما تتأملون في كلمات أمير المؤمنين ستلاحظون هذه النقاط التي ذكرت.

- محاربة قبول التكبر

ثم كان مرض قبول المتكبر حيث تقبل تلك الجماعة المستحقر هذا الواقع. والآن اذهبوا واطالعوا في تاريخ ذلك العصر، فستلاحظون علام قبول الظلم والتكبر والعنصرية في حياة الناس بشكل يبعث على الأسى. وأولئك الذين كانوا يرفعون رؤوسهم ولا يقبلون بهذا الواقع، كانوا دائماً يتعرضون للمضايقة، وكان من هذه من خصوصيات أهل العراق الثابتة. نعم، ينقل عن أهل الكوفة إنهم لم يكونوا أوفياء، وهذه الخصلة نانة من أمور كثيرة. ولكن أهل العراق في ذلك الوقت، كانوا مترفعين لا يقبلون حكام الشام. وأظن أن أحد أسباب هذه القضية هو حضور أمير المؤمنين "عليه السلام" بينهم، فقد تعلموا هذا الخلق الإسلامي في برهة قصيرة منه.

على كل حال، نشاهد طوال الحكم الأموي والعباسي الذي دام حوالي 600 سنة. أن المقتل الأساسي هي هذه المسألة، التي منها حصل الفساد ودخل. لهذا نجد في الكثير من الموارد في تعاليم أمير المؤمنين "عليه السلام" ما يتناول دحض روح التكبر والاستعلاء والتبعيض.

المسألة الأخرى ترتبط بالفتنة، وهنا نجد كلاماً عجيباً لأمير المؤمنين "عليه السلام". إن من يتأمل في هذا الكلام العميق، الجميل والجامع يصاب بالحيرة والاندحاش.. ما هي الفتنة؟ إنها تعني الشبهة واختلاط الصفوف، أي اختلاط الحق والباطل:

"ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان! فهناك يستولي الشيطان على أوليائه". (9) وفي هذه القضية حين يخلط الحق والباطل، يستفاد من شعارات الحق لمآرب أهل الباطل، لأجل إحكام قواعد وأسس الباطل. وهذا مرض وبلاء كان مستفحلاً في عصر أمير المؤمنين "عليه السلام"، ولهذا كان "عليه السلام" يكشف عنه ويفضحه.

في باب الفتنة نجد نوعين من الكلام لأمير المؤمنين "عليه السلام" في "نهج البلاغة". أحدهما ما يدور حول الفتنة بشكل عام. وقد دُونت في هذا المجال عدة جمل. ففي الخطبة الثانية، يتحدث عن الأوضاع التي كانت سائدة حين بعث الله تعالى نبيه الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم" فيقول: "في فتن داستهم باخفافها، ووطنهم باظلافها وقامت على سناكبها، فهم فيها تانهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دار وشر جيران، نومهم سُهود وكحلهم دموع". (10)

وهذا المقطع أيضاً غير قابل للترجمة. ويحتاج إلى الشعراء وأهل الذوق لكي يجدوا معادلاً دقيقاً لكل كلمة ولكل تركيب.. إنه حديث عن الفتن السائدة في المجتمعات قبل ظهور الأنبياء، وهو يريد أن يبين الأوضاع التي آل إليها المجتمع والناس في زمانه.

والمورد الآخر من كلام أمير المؤمنين "عليه السلام" عندما يذكر فتنة محددة، كما في جميع المواضع التي ذكر فيها مخالفه الذين شنوا الحروب والمعارك ضده كعاقبة وطلحة والزبير وعائشة وغيرهم وكذلك الخوارج.

أهمية الإفشاء

هذا النوع الثاني في الواقع هو الإفشاء. فأمر المؤمنين "عليه السلام" كان يكشف عن الوجوه لأجل وأد الفتن. فهذا أفضل طريق لذلك. لأن الفتنة تتشأ في ظل مواجهة بين فئتين متصارعتين ينبعث من صراعهما الغبار فلا تُعرف عندها الوجوه في الحقيقة. ولعله قد يحمل الأخ السيف على أخيه، أو يطعنه، أو يعتمد على عدوه ويلجأ إليه. فهذه هي الفتنة. وما هو علاجها؟ علاجها الإفشاء، ولا يوجد مثل هذا العلاج للفتن. وكان أمير المؤمنين "عليه السلام" يمارس هذا العلاج، وهذا ما يدل على وجود المرض في ذلك الزمان.

في بحثي هذا تعرضت لثلاث نقاط هي: الدنيا، الكبر والفتنة. ويمكنكم أن تجدوا في "نهج البلاغة" مئة أمثالها، لم أحصها لأقول مئة ولكن أحس ذلك وأتصور أننا ربما نجد أكثر منها. كان أمير المؤمنين "عليه السلام" يشير إلى العلاج ومنه يعلم بوجود المرض. ولو لم يكن المرض موجوداً، لم يكن هذا الحكيم الذي يتحمل مسؤولية مضاعفة تجاه المجتمع ليتحدث عن ذلك، ولكان يتطرق إلى أشياء أخرى. فهذا الكلام يدل على حجم ابتلاء الناس بتلك الأمراض ويعرض طرق الخروج منها. وإننا اليوم بعد مرور أكثر من ألف وثلاثمئة سنة، ما زلنا بحاجة إلى تلك الوصفات العلاجية، لنتعرف على العلاج ولنتعرف أيضاً على نوع الأمراض التي تهددنا.

نحن نعيش في هذه الأيام ظروفاً تشبه تلك الظروف السابقة؛ فحب الدنيا والالتكباب عليها يهددنا، ويحرق بنا مرض الكبر وحب النفس والتبعض، كذلك نجد طوفان الفتن الاجتماعية تهددنا بالسقوط.

وعليه فإننا بحاجة في تلك العلاجات، وأكثر من أي وقت مضى إلى "نهج البلاغة"، وخصوصاً من خلال هذه الرؤية.

ومن جانبي فانا لم أرَ أحداً يسلك هذا المنهج مع "نهج البلاغة". وكما تعلمون، يوجد أعمال كثيرة حول "نهج البلاغة" ولكن هذه الرؤية جديدة، وتحتاج بأن ننظر بواسطة مرآة هذا الكتاب إلى الأوضاع ونشاهد الوقائع والأمراض والأخطار المحدقة، ونتعرف بعدها إلى أساليب المعالجة. ففي عصرنا الحالي نحن بحاجة ماسة إلى تفسير وشرح "نهج البلاغة" من هذه الجهة.

وفي الختام، أشكر أولاً الأخوة الأعزاء الذين نهضوا في سبيل إحياء "نهج البلاغة"، وأضافوا على الأبحاث الدائرة حول هذا الكتاب أبعاداً علمية جديدة، وألوهوا الاهتمام وثابروا عليها، فأخرجوه من تحت ركام النسيان والإهمال.

وأكثر المحققين في هذا المجال من الشراح والمترجمين والجهود الأخرى القيّمة. ولكنني أرجو أن نأخذ قضية "نهج البلاغة" على محمل المزيد من الجدية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المراجع:

1- نهج البلاغة.

2- ما يلزم ذكره هنا أنه بعد عدة سنوات من هذه المحاضرة القيّمة لسماحة الإمام القائد أنجزت مجموعة من الأعمال في هذا المجال، ونشرت مجموعة من الترجمات إلى اللغة الفارسية.

3- خلال السنوات الماضية ظهر على العلن مجموعة من الأعمال في هذا المجال منها: تصنيف نهج البلاغة للبيبي بيضون. والفهرسة الموضوعية لنهج البلاغة من قبل المؤسسة. والهادي إلى نهج البلاغة لآية الله المشكيني. والدليل إلى موضوعات نهج البلاغة لعلّي أنصاريان، والمعجم الموضوعي لنهج البلاغة، إعداد أويس كريم محمد.

4- نهج البلاغة.

5- سورة البقرة، الآية 207.

6- سورة البقرة، الآية 269.

7- نهج البلاغة، الخطبة الغراء.

8- نهج البلاغة، الخطبة القاصعة.

9- نهج البلاغة.

10- نهج البلاغة، الخطبة 2.